



20 مارس 2019

﴿قَالَ رَبُّ السَّجُنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (33) (يوسف).

ذلك مضت سنة ريك من قبل ومن بعد.. ما صدع أحد بالحق وجهه به، ودعا الناس إليه إلا أودي، والعاقبة للمتقين والنصر للصابرين.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْصَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ (207) (البقرة).. ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ (11) (الحج). ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ (10) (العنكبوت)، وسبحان من قسم الحطوط، فلا عتاب ولا ملامة، ﴿قَرِيبٌ فِي الْجَنَّةِ وَقَرِيبٌ فِي السَّعِيرِ﴾ (الشورى: من الآية 7).

تلوت هذه الآيات جميعاً، واسترسل بي التفكير، وتداعت إلى نفسي المعاني، يأخذ بعضها بعجز بعض، وانتقل الخاطر من الآيات إلى العظات، ومن الحاضر إلى الغابر، وتكشفت صحائف التاريخ، فلمحت في ثناياها المشرقة أئمة الفقه الإسلامي الأربعة: أبا حنيفة النعمان بن ثابت، ومالك بن أنس، ومحمد بن إدريس الشافعي، وأحمد بن حنبل الشيباني، رضي الله عنهم جميعاً، أولئك الذين مهّدوا للناس سبيل الفقه، وعبّدوا طرائقه للسالكين، وكانوا في الناس كالشمس للدنيا والعاقبة للبدن، ومع هذا لم ينح أحدهم من محنة في سبيل الحق، كانت له منحة ولا شك.

عُرض القضاء على أبي حنيفة مرتين، وهو يعلم أن استقلال القاضي حينذاك قد يهدّد بتدخّل الولاة ورأي الخلفاء، مع أن القاعدة العامة يومئذ أن منزلة القاضي من السموّ بحيث لا تنال منها رهبة ولا تؤثر فيها رغبة، وكان لأبي حنيفة في الدولة رأيته فلم يشأ أن يقبل، وألح أبو جعفر وأصرّ أبو حنيفة، وأقسم الخليفة فأقسم الإمام، وانتقل الأمر إلى التهديد والوعيد، فلم يفعل شيئاً أمام عزيمة أقوى من الحديد، وضرب الإمام أكثر من مائة سوط حتى سال الدم على عقبيه وهو ثابت لا يلبس، وحبس حتى مات في محبسه أو أخرج منه واعثقل في منزله لا يفتي، ولا يجتمع الناس عليه، وهو على موقفه الأول، وجاءته أمه تعاتبه وتقول: "يا نعمان، إن علماً ما أفادك غير الضرب والحبس لحقيق بك أن تنفر عنه"، فقال: "يا أماه لو أردت الدنيا ما ضربت، ولكن أردت وجه الله وصيانة العلم".

وسئل مالك عن طلاق المكره- وهو يعلم ما يقصد السائل، وأنه يسأل عن يمين البيعة يُكرهه الوالي عليها الأمة، فلا تجد مخرجاً إلا اليمين هرباً من العذاب الأليم- فقال: "طلاق المكره لا يقع"، وغضب الوالي لفتوى الإمام، وأحضره، وحاول أن يثنيه عن عزمه، وأتى له، فأمر به فضرب مائة سوط، وجذب جذباً عنيقاً حتى خلعت كتفه، وطيف به في الأسواق وهو يقول مع هذا كله: "طلاق المكره لا يقع".

وأثهم الشافعي رضي الله عنه في اليمن بانضمامه إلى حزب الطالبين وشغبه على حكومة الرشيد وإمامته، فأحضر من صنعاء إلى بغداد بالسيف والنطع، وأعدم قبله تسعة وكان هو العاشر، ومع هذا لم تهن عزمته، ولم تلن قناته، ولم يذهب الخوف بلبه، وأثبت الحق لنفسه حتى فاز بإعجاب الخليفة به، وتقريبه إياه، وسلم العلم والفضل بسلامته.

وحاول المعتصم أن يظفر من الإمام أحمد بن حنبل الشيباني بكلمة تُوافق رأي الخلافة ومذهبها حين ذاك، والإمام حيث هو وقّاف عند كتاب الله وسنة رسوله- صلى الله عليه وسلم- منكر لكل ما يسمع عداهما لا يتحوّل ولا يتردّد، وضرب حتى عُشي عليه، وشجن في بيته لا يتصل بأحد، ولا يتصل أحد به، حتى قرّح الله عنه، فلم يكن خصومه معه إلا على حد قول القائل:

ناتح صخرة يوماً ليوهنا فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

ومن قبل ومن بعد إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها مضت وتمضي سنة الله العلي الكبير ﴿وَلَيَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَتَبْلُوَ أَجْبَارَكُمْ﴾ (31) (محمد).

فאלهم إن كان بلاءً في مرضاتك وفي سبيلك فمرجّباً به وأهلاً، ولك العتبي حتى ترضى، وما لم يكن بك غضب علينا فلا نبالي، وعافيتك بعد ذلك أوسع لنا،

ولله الأمر من قبل ومن بعد.
وأنتم أيها المجاهدون العاملون لدعوات الحق اليوم وعدًا.. هذا نبأ من أمس ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَيُهْدَاهُمْ إِلَىٰ آفَاتِهِ﴾ (الأنعام: من الآية 90).

* سبق نشره في (إخوان أون لان) بتاريخ 14 فبراير 2008، نقلا عن جريدة (الإخوان المسلمون) اليومية- السنة الأولى- العدد 192- ص 1 بتاريخ 25 محرم 1366هـ = 19 ديسمبر 1946.

www.ikhwanonline.com/236062